



جمال الدين الأفغاني
(١٨٣٩-١٨٩٧م = ١٢٥٤-١٣١٥هـ)

**داعية توحيد
في وجه العدو**

عندما طاف المصلح «جمال الدين الأفغانى»، عدداً من مناطق العالم الإسلامى، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وجد فيها أحوالاً تثير الحزن والخوف، وتصعب على كل ذى ضمير.

فقد كان المسلمون والعرب نهياً للاستعمار وغارقين فى الجهل والتخلف والفقر. وكتب الأفغانى فى وصف دأئهم والدواء اللازم، ما يكشف عن عبقرية متميزة.

ولم تستجب دعوة الأفغانى، وكأننا مازلنا اليوم كما كنا فى زمنه، مع إضافة صفة جديدة إلى أوضاعنا، وهى تهمة «الإرهاب» وشراسة تكالب الآخرين علينا.

وفى وسط هذا النفق المظلم الذى تسير فيه الأمة العربية ولإسلامية، وتلك الأوضاع المأساوية التى جعلت الأعداء يتقضون عليها من كل صوب، ويتداعون عليها يقتلون الأبرياء المدافعين عن حقوقهم فى فلسطين، ويحاصرون الأطفال والنساء فى العراق، ويرفعون عصا التهديد فى وجه كل من يحاول الذود عن الكرامة العربية الجريحة. فى هذه الأوقات العصيبة، يطل علينا وجه من أبطال التاريخ الإسلامى، يصرخ فىنا شعوباً وحكاماً يطالبنا بنبذ الخلاف والتوحد فى مواجهة العدو.

حدد جمال الدين الأفغانى رسالته وهدفه بقوله: «لقد جمعت ما تفرق من الفكر ولمت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى تراها، ثم الهند وفيها ثقف عقلى، فأيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب، من حجاز هى مهبط الوحى، ومن يمن وتابعتها، ونجد، والعراق، وبغداد، وهارونها ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فيها، والأندلس وحمراؤها وما آل إليه أمرهم، فالشرق.. الشرق، فخصصت دماغى لتشخيص دأئهم وتحرى دوائهم، فوجدت أقتل أدوائهم انقسام أهلهم، وتشتت أدائهم واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم، وتنبههم للخطر الغربى المحدق بهم».

نظرة للحياة:

يُعتبر «جمال الدين الأسد آبادي الأفغاني»، من أعلام النهضة الفكرية الحديثة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واجتمع له من الصفات العقلية، والعلمية، والأخلاقية، النادرة، والزهدي في الدنيا والقوة في طلب الحق لكل مظلوم، فرداً كان أم جماعة أم دونه، ما جعله محط الأنظار شرقاً وغرباً. وهو الذي قال حين طُلب منه أن يكتب سيرته الذاتية، وأى نفع لمن يذكر أنى ولدت سنة ١٢٥٤هـ، ١٨٣٩م، وعمرت أكثر من نصف عصر، واضطرت إلى ترك بلادى الأفغان مضطربة، تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأكهرت علي مبارحة الهند، وأجبرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت، قل: «نُفيت منها ومن الأستانة»، مقر الخلافة العثمانية وقتها، ومن أكثر عواصم الأرض، كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرنى، وليس فيها أدنى فائدة للقوم. أما القول إنها لا تسرنى لا بمعنى أنى نفيت من البلاد أو سجت، كلاً. لأنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العُتاة «رياضة». والنفى في سبيل ذلك السبيل «سياحة»، والقتل «شهادة»، وهى أسمى المراتب، فأنا عن نفسى غير راض، ذلك لأن الخمول قد قعدبى، فلم يوصلنى إلى أسمى مرتبة وهى «مرتبة الشهداء» وحطنى في مصاف المنفيين من أرض إلى أرض، فما أبعدنى في كل ذلك عن أولى الهمم، ومن قاموا بالأعمال الخطيرة، أو المطلب الجلل».

كان «جمال الدين الأفغاني»، مثالاً للمناضل، مثالاً من أجل بعث إسلامى جديد، وحركة إسلامية نهضة تستعيد للمسلمين مجدهم السالف، وعزهم الغابر، متمسكين بالجزور الأصيلة للإسلام في مواجهة الهجمة الغربية الاستعمارية الشرسة. وكان يرى أن تحقيق هذا الهدف يتطلب قيام جامعة إسلامية، تضم كل المسلمين في وحدة سياسية لمحكمة للعالم الإسلامى، حيث ترتبط دولة ببعضها بعضاً، بروابط سياسية، واقتصادية محكمة، إمامها القرآن والشورى، ولا تتخلى عن الأخذ بأسباب التقدم العلمى الذى برع فيه الغرب.

من سلالة الحسين:

وُلِدَ «جمال الدين الأسد أبادى الأفغانى» سنة ١٨٣٩ للميلاد، في قرية «أسعد آباد» من قرى منطقة كتر القريبة من كابول، العاصمة الأفغانية، لأسرة تنحدر من أصول عربية حجازية، يرجع بها النسب إلى الإمام الحسين بن علي بن أبى طالب، مروراً براوى الحديث المشهور الإمام «الترمذى». وكانت أسرته ذات نفوذ سياسى وإدارى في منطقتها.

انتقل في الثامنة من عمره، مع الأسرة إلى العاصمة كابول، عندما خشى دوست محمد خان، حاكم البلاد وقتها، من نفوذ أسرة «جمال الدين»، فسلبهم أرضهم وإمارتهم وأرسلهم إلى العاصمة، حتى يكونوا بين يديه وتحت عينيه. وأخذ والده «صفر»، يشرف على برنامج تعليمه في تلك السن.

وبلغ الثامنة عشرة، وكان قد درس مبادئ العلوم العربية، وعلوم الشريعة من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وكلام، وتصوف، ومنطق وأخلاق، وسياسة، وسافر إلى الهند، فأقام هناك سنة ونصف استنطاق أثناءها أن يلم ببعض المعارف الحديثة، من حساب وهندسة وفك وجبر، وحتى نظريات الطب والتشريح. كما تعلم مبادئ اللغة الإنجليزية، فجمع الحكمتين، ثم سافر من الهند إلى الحجاز سنة ١٨٥٧ م، لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى كابول موظفاً في حكومة الأمير الحاكم، دوست محمد خان، إلى أن نشبت الحرب الأهلية، إثر انقسام أبناء الأمير على أنفسهم بعد وفاته، وانضم «جمال الدين» إلى «محمد أعظم» أحد هؤلاء الإخوة، الذى كُتِبَ له النصر، وارتفع شأن «جمال الدين» عند ذلك الأمير، فاتخذة كبيراً لوزرائه.

وتجددت الحرب الأهلية، وناصر الإنجليز الأمير «شير على» وأمدوه بالمال والسلاح فانتصر على أخيه، واضطره ذلك إلى الفرار من البلاد، فانتقل «جمال الدين» إلى الهند منفياً، سنة ١٨٦٩ م. وأحاطه الإنجليز بعمالئهم، ولم يسمحوا له

بالاتصال بزعماء المسلمين، ولم یقم في الهند أكثر من شهر، ثم طلبوا منه مغادرة البلاد.

الاتجاه إلى مصر:

اتجه «جمال الدين» إلى مصر لأول مرة سنة ۱۸۶۹م / ۱۲۸۶هـ، وكانت شهرته قد سبقته إلى الديار المصرية، وسعى الإمام الشيخ «محمد عبده»، إلى لقائه. وكان هذا اللقاء مقدمة للصلة الوطيدة بينهما. ولكن «جمال الدين»، لم یمكث في مصر أكثر من أربعين يوماً ذهب فيها إلى الأزهر، وألقى دروساً في النحو والحكمة على الطلبة الشوام «أبناء بلاد الشام» الدارسين في الأزهر. وذهب من القاهرة إلى إستانبول، فرحب به العلماء وأصحاب المناصب، وأكرم السلطان عبد الحمید وفادته.

ولم یضیع «جمال الدين» الفرصة في الدعوة إلى الإصلاح الديني والسياسي، فطار صيته في أنحاء تركيا، غير أن هذا النجاح، الذي لقيه، أوغر صدور الحاقدين العاجزين، فطلب السلطان من «جمال الدين»، أن یغادر البلاد تسكيناً للخواطر، فرحل عنها إلى مصر من جدید، سنة ۱۸۷۱م.

وتعتبر فترة إقامة الأفغانی في مصر من (۱۸۷۱ - ۱۸۷۹م)، من أهم فترات كفاحه السياسي، والتنويري، فوجد الشباب المصري والعربي عند جمال الدين، روحاً جديدة غير مألوفة عندهم، وجدوا عنده مذهباً متكاملأ عن الدين والحياة، والكون، والإنسان، والحرية، ومقاومة التغريب، وضرورة التمسك بالمنبع الأصل للثقافة الإسلامية، وهو القرآن الكريم. وقد استطاع الأفغانی بخطبه الملتهمية، أن ینفث في النفوس نزوعاً إلى الحرية، ورغبة في العدالة، وخطب مرة في الإسكندرية، قبل خلع «الخديوي إسماعيل»، فقال: «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنت ما تسد به الرموق، وتقيم أود العیال، فلم لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين یأكلون ثمرة تعبك؟».

وبذل جهداً كبيراً في تنبيه المصريين إلى مضار الاستكانة لتدخل الأجانب في

شؤونهم، فخطب فيهم: «لو كان في عروقكم دم ينبض، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر، فتبعث النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا النذل، ولما قعدتم على الرضاء وأنتم تضحكون، تناوبتكم أيدي الغزاة من كل جنس، وأنتم كقطع الصخر الملقاة في الفلاة، لا صوت لكم ولا حس».

ولم يكتف الأفعانى بالخطابة، الدروس، واللقاءات مع القوى الوطنية في ذلك الوقت، وإنما أخذ يكتب في الصحف كتابات نارية، كان ينشرها باسمه أحياناً، أو بأسماء تلاميذه، أو بأسماء مستعارة، فاتخذت حكومة «الخدوي توفيق»، قراراً بنفيه، بحجة «أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا»

إلى الهند:

غادر «جمال الدين» مصر متجهاً إلى الهند، وأقام في مدينة «حيدر آباد» حيث ألف باللغة الفارسية كتابه «الرد على الدهريين»، الذى نقله الشيخ «محمد عبده» إلى العربية، ورد فيه على أصحاب المذهب الضيعى، الذى انتشر في الهند، بتأييد من المستعمر الإنجليزي، وقال في الكتاب: «ومقصد أرباب هذه الطريقة «الدهرية»، محو الأديان وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية»، ثم يقول: «إذ لا ريبة في أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس للتمدن من دون الدين البتة. وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقيدة دينية، أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سالكيها، مع طول الزمن على نشأتها، فسببه أن نظام الألفة الإنسانية، وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية، كانت له الغلبة على أصولها الواهية، وشريعتها الفاسدة».

وقامت الثورة العراقية في مصر، إبان إقامة الأفعانى في الهند، فأبعدته الحكومة الهندية من حيدر آباد، وفرضت عليه أن يقيم في «كلكتا» إلى أن انتهت الثورة العراقية، باحتلال الإنجليز مصر، وعندئذ سُمح له بمغادرة الهند إذا شاء، فذهب

إلى باريس، وأقام فيها ثلاث سنوات حافلة بالنشاط السياسي في الدعوة إلى تخليص البلاد الشرقية من تدخل الحكومات الغربية في شؤونها، وفي الدفاع عن عتائد الإسلام كلما تعرضت للهجوم عليها، من المغرضين.

العروة الوثقى:

والتقى «الأفغانى» في باريس بتلميذه وصفيه، الإمام الشيخ «محمد عبده»، الذى أبعده عن مصر لاشتراكه في الثورة العرابية، وفي العمل ضد المحتل الإنجليزي، والحكام المتعاونين معهم، وأصدر الشيخان في باريس، مجلة «العروة الوثقى»، ولخصاً في العدد الأول، الصادر في الخامس من جمادى الأولى عام ١٣٠١ هـ (الثالث من مارس ١٨٨٤ م)، أهدافهما من إصدار هذه المجلة في عدد من المبادئ هي:

- بيان الواجب على الشرقيين، وأسباب فساد حالهم.
- إشراب النفوس عقيدة الأمل، وترك اليأس.
- الدعوة إلى التمسك بالأصول، التي كان عليها أسلافهم وعزوا بها.
- الدفاع عما يُتهم به الشرقيون عموماً، والمسلمون خصوصاً، خاصة أنهم لن يتقدموا ماداموا متمسكين بدينهم.
- إخبارهم بما يهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.
- تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتمهيد الطريق إلى جامعة إسلامية، تعيد شأن الإسلام الأول، وتقوية فكرة الرابطة الشرقية، بتقوية العلاقات السياسية، والتجارية بين شعوب الشرق، صدأً لتيار الغرب وزحفه.
- ولم يصدر عن هذه المجلة سوى ثمانية عشر عدداً، قبل أن تتوقف. فقد صودرت في الهند، ومصر، وفُرضت غرامات مالية باهظة على كل من يقرأها أو يقتنيها.

السودان وأيرلندا:

وزار «الأفغانى» لندن، أثناء وجوده في باريس، ليناقش جوانب الثورة المهديّة،

التي قامت في السودان، وحاول محاوروه الإنجليز، التعرف على رأيه في المسألة السودانية، أوضح لهم خطأ سياسة إنجلترا نحو الإسلام، ومصر والشرق عموماً، فاقترحوا عليه تويجه سلطاناً على السودان، لاستئصال ثورة المهدي، وتحقيق أهداف بريطانيا فرفض، لأن بريطانيا تعطي ما لا تملك من لا يستحق، والأولى بريطانيا إصلاح أيرلندا، فأعجب به الأيرلنديون الأحرار.

ثم استدعاه ناصر الدين، شاه الفرس إلى طهران، وقربه إليه وعهد إليه بوزارة الحربية مع لقب «مستشار خاص للشاه». لكن الشاه ما لبث أن خاف من شعبيته، وخشى على سلطانه منه، فتنكر له، ولما شعر «جمال الدين»، بأنه غير مرغوب فيه، استأذن الشاه في السفر إلى روسيا القيصرية.

وأقام في مدينة «بترسبرغ»، أربع سنوآت، نشر فيها عدة أبحاث عن العالم الشرقي، والسياسة الدولية، والتقى القيصر، لكنه سرعان ما اختلف معه حول دور الشورى والشعب، في تسيير دفة الأمور، فأمر القيصر بإخراجه من روسيا. وتجول في أوروبا، والتقى صدفة مجدداً، الشاه الفارسي في «ميونيخ» عام ١٨٨٩، واعتذر له الشاه، وطلب منه أن يعود إلى طهران، فرجع معه لتنظيم الدولة، فسن لها قانوناً تكون فيه الحكومة ملكية شورية، ثم دخل في صراع ضد الشاه، الذي تواطأ مع الاستعمار ضد دولة الخلافة، وضد الحركة الوطنية الإيرانية، وأجبر الشاه على سحب امتياز شركة «التبغ» البريطانية «ريجي». بعد أن نجح في جعل الشعب يقاطع إنتاجها، وهو ما جعل الشاه يرسل خمسمائة من فرسانه يقتحمون على «الأفغانى» فراش مرضه، ليقودوه على محفة خشبية، وهو ينتفض من الحمى، إلى البصرة في العراق، فقامت ثورة من مريديه أخذها الشاه، الذي طعنه رجل من أهل فارس وقتله ثاراً «لجمال الدين».

الأسد المكبل بالذهب:

استدعاه السلطان «عبد الحميد»؛ الذي كان حريصاً على استبقائه على مقربة منه

ليتيسر له مراقبته، ولما وصل خبر اغتيال الشاه في إيران، أظهر الأفغانى سروره، فزاد السلطان «عبد الحميد» فزاعاً منه، وأمر بتشديد الرقابة عليه، وظل «الأفغانى» في مدينة استانبول خمس سنوات، قضاها كما وصفه سائح ألماني، زاره سنة ١٨٩٦ م، «في سجن النعمة، خلف قضبان من ذهب»، ولم يتزوج جمال الدين الأفغانى، تخنفاً من أعباء الأسرة، وتفرغاً لكفاحه. وعندما أهداه السلطان إحدى جواريه الجميلات، ليقيد حرите بالزواج، رفض.

الوفاة:

توفى «جمال الدين الأفغانى»، صبيحة التاسع من مارس سنة ١٨٩٧ م-١٣١٥ هـ، متأثراً بمرض السرطان، الذى أصاب فكه، وقيل إن السلطان «عبد الحميد» دس عليه من ساعد على موته، ودفن في قبر متواضع جداً، ظل مهجوراً حتى شيده العالم الأمريكى كرين، سنة ١٩٢٦ م، ونُقل الرفات سنة ١٩٤٤ م إلى بلاده أفغانستان، عبر البلاد العربية، في موكب رسمى وشعبى.

من أقواله:

الاستعمار الثقافى

نبه الأفغانى الشعوب الإسلامية إلى خطر جديد هو الاستعمار الثقافى فقال: «يتخذ الغربيون في الشرق أساليب عجيبة للقضاء على الروح القومى، وقتل التربية الوطنية، وتقويض الثقافة الشرقية: فتراهم يزيفون للشرقين أن ينكروا على قومهم كل مآثرة وكل فضيلة، ويلقون في روعهم أنه ليس في لغاتهم العربية أو الفارسية أو الهندية آداب تؤثر، ولا في تاريخهم مجد يذكر، ويوهونهم بأن قصارى المجد للشرقى النابه أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنها لا يحسن التعبير بها، وإن ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطيع بلوغه من الثقافة الإنسانية: ألا ليت الشرقيين يدركون أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مآثر رجالهم».

الوصول إلى القمر والأجرام السماوية الأخرى:

وكان جمال الدين كان يستشرف المستقبل واختراعاته حين قال «... وعندى، إذا ظفر العقل في هذا الحراك والجدال، وتغلب إقدامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص في البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره، كأنه قاب قوسين أو أدنى، وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر، أو الأجرام الأخرى؟!».

الاتجاه العقلي في الإسلام:

وكان الأفغانى يهيب بالمسلمين على اختلاف مذاهبهم أن يستعملوا هذا المبدأ العقلي الذى امتاز به الإسلام على سائر الأديان فيقول: «هذا الدين يطالب المؤمنين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلهم خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل: تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة، وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة»^(*).

الحث على الجهاد ضد المستعمر:

كان يردد دائما «أترضى ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا، أن تُضرب علينا الذلة والمسكنة؟! أو أن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة؟! بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء، حتى يخلى منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته؟!».

وعندما يناقش العلاقة بين الشعب ومستعمريه، ويحدد معالم «الخيانة»، فإنه لا يراها مقصورة على «المعاونين» مع الأعداء بل ويرأها كذلك عارا لاصقا بالسليبين، والمتهادنين في المعركة ضد هؤلاء الأعداء فيقول: «لسنا نعنى بالخائن من

(*) د. محمد عمارة، «الإسلام بين التنوير والتزوير»، دار لشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٢٤٥.

يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمان بخس أو بغير بخس، وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس - بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها».

العقل مرة أخرى:

ثم يعود الأفغانى ليتحدث عن العقل مرة أخرى فيستعير كلمات ابن عربى التى يقول فيها: أيجسب الإنسان أنه جرم صغير؟ وفيه انطوى العالم الأكبر ثم يمضى قائلا: «نعم.. إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما صورته جحوده وتوقف عقله عنده بأنه «خيال» قد أصبح حقيقة».

معنى الإرهاب:

ثم يتحدث الأفغانى في مقال له عن حرب الشعب مهاجماً الذين يصفونها بأنها «إرهاب» فيقول: «إنما ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه، وماله، وشرفه، وأن يخرج مخالبا عدوه من أحشائه، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة».

ثم يقول: إن مقاومة الأهالى أشد أضعاف مضاعفة من القوى العسكرية - النظامية - ... وما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغانين أعظم شاهد على ما نقول. دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكرى، واستولت على المدن، وكاد قدمها يرسخ في البلاد، فلما قام الأهالى من كل صقع، والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان عجز الستون ألفا عن الوقوف موقف الدفاع، واضطرت حكومة إنكلترا بعد تسلطها ستين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترليني إلى ترك البلاد!!

رحم الله «جمال الدين الأفغاني» ذا البصيرة النافذة التي كانت تستشرف آفاق المستقبل وتعبر عنه.

ونعتقد أن خير ما يصور شخصية «الأفغاني»، في طموحه وإبائه هو ذلك المعنى الذي أشار إليه هو نفسه في بيت الشاعر العربي:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود

